جمهورية العراق

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة ديالى

كلية التربية للعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية– الدراسات العليا

شعر العباس بن الأحنف في الخطاب النقدي العربي

رسالة مقدمة

إلى مجلس كلية التربية للعلوم الإنسانية/جامعة ديالى وهي جزء من متطلبات نيل درجة الماجستير في اللغة العربية وآدابها/ تخصص الأدب

من الطالبة

رشا زيدان يوسف

بإشراف

أ.م.د خالد فائز ياسين

١٤٤٦هـ ٢٠٢٥م

الفصل الأول

الخطاب الشعري في شعرالعباس بن الأحنف

المبحث الأول

الأغراض الشعرية في ديوان العباس بن الأحنف

لعلّ الارتباط الأهم في حياة العباس بن الأحنف هو ارتباطه بفوز التي وقف شعره الغزلي كلّه أو معظمه عليها، أو على التغزل بها.

وفي هذا يذكر الأصفهاني (٨٩٧م – ٩٦٧م) أنّ فوزاً كانت جارية لمحمد بن منصور الذي كان يلقّب بفتى العسكر، ثمّ اشتراها بعض شباب البرامكة وحجّ بها، وفي رواية أخرى أنّ فوزاً كانت لرجل من أسباب السلطان(١). وسواء كانت فوز جارية لفتى العسكر أو لرجل من ذوي السلطان، ((فإنها في الحالين تابعة لرجل ذي قوة ونفوذ، ولهذا فإنّ بعض الدراسات المعاصرة ترى في هذا الوضع الاجتماعي لفوز تفسيراً واضحاً على كتمان العباس لاسم صاحبته وطيّه سرّ هذه الشخصية، ودفن علاقته بها في صدره، إذ كيف يقترن بها وهي عقيلة رجل معروف؟ ولو كانت جارية وحسب لهان الأمر، وتيسّرت له حلول شتّى ولكنها لم تكن كذلك))(٢). كما أنّ بعض الدراسات المعاصرة حاولت البحث في شخصية فوز هذه لأجل تعرّف حقيقة هذه المرأة التي شغلت بال العباس وبال الباحثين في شعره فيما بعد، حيث جاء في إحداها ((أنّ فوزاً لو كانت جارية أو امرأة عادية لما كلّف الشاعر نفسه عناء هذا التكتّم الذي أحاطها به داخل سياج، بحيث ظلت مختفية عنّا طوال هذه العصور، وبقيت لغزاً يرقد في ضمير الزمن، وغنها لا بدّ أن تكون سيدة من سيدات البلاط العباسي، وهذا وحده يمكن أن يفسّر لنا سبب حيطة الشاعر في كتمانه هواه، وإحاطة شخص الحبيبة بهذا الجو من الغموض))(٣).

---

(١) ينظر:الأغاني، ٤٨/١٧.

(٢) العباس بن الأحنف حياته وشعره: :٧١.

(٣) الشخصية التاريخية لفوز، :احسان العباس، مجلة الرسالة، ع١٠٣٦/ ١٩٦٣م، :١٦.

وفي ضوء ما أورد الأصفهاني نجد أنّ صاحبة العباس عتبة قد حملت أوصاف فوز، في قول العباس(١):

عصّبتْ رأسها فليتَ صداعاً قد شكتْهُ إليّ كان برأسي

والذي يدلّ على أن صاحبته (عتبة) كانت هي (فوز) ما يورده الأصفهاني من ((أنّ العباس أرسل رسولاً إلى فوز فوجدها تعاني الصداع ورآها معصوبة الرأس))(٢) ولعل الشاعر تكتم على علاقته بها لأسباب كثيرة أهمها أنّ صداقته بالرشيد هي التي منعته من إشاعة العلاقة بها لأنه لو فعل ذلك وكشف عن اسمها الصريح في أشعاره لخسر مودّة الرشيد وصداقته والحظوة التي يتمتع بها عنده، ولعل ما يؤكد ذلك قول العباس نفسه(٣):

وأيقنتُ أنّي إن تكلّمتُ ضرّني كلامي فآثرتُ السكوتَ على الخُسْرِ

وقوله(٤):

كتمتُ اسمها كتمانَ من صانَ عرضهُ وحاذرَ أن يفشو قبيحُ التسمُّعِ

وقوله(٥):

فسمّيتُها فوزاً ولو بُحتُ باسمها لسُمّيتُ باسمِ هائلِ الذّكر أشنعُ

ولم يكتفِ العباس بإخفاء اسمها فحسب، بل أوغل في تضليل الناس والتعتيم عليهم، وذلك بالتمويه حول سكن فوز وصفاتها، فقال(٦):

أبكي إلى الشرقِ إن كانت منازلهم مما يلي الغرب خوف القيل والقالِ
أقول بالخدّ خالٌ حين أتعتُها خوفَ الوشاةِ وما بالخدّ من خالِ

---

(١) شرح الديوان، :١٨٦.
(٢) الأغاني، ١٧/ :٤٩.
(٣) ينظر: شرح الديوان، :١٦٠.
(٤) المصدر نفسه، :١٧٤.
(٥) المصدر نفسه، :١٩٣.
(٦) المصدر نفسه، :٢٢٣.

وقد يعمد على التمويه بذكر أسماء نساء كثيرات مثل: ظلوم، وسدوم، وذلفاء، ظليمة، وخلوب، ونرجس، نسرين ذات الخال، كما في قوله(١):

أظلــومُ حــان إلــى القبــورِ ذهــابي وبليــتُ قبــل المــوت فــي أثــوابي

وقوله(٢):

وكنــتُ أقــدرُ يــا ظليمــةُ لــم أغــبْ عــــنكم وأتخــــذِ الجزيــــرةَ منــــزلا

وقوله(٣):

أرونـــــي وجـــــه نســـــرينِ وأنّـــــى لـــــي بنســـــرينِ

وقوله(٤):

لعلّــك يــا ذلفــاءُ أن طــال عهــدنا بكم قد تناسيتِ المواثيقَ والعهدا

وقوله(٥):

قولــوا لنــرجسَ خلّصــي قلبــي فقــد غرّقتِــــهِ فـــــي لجّـــــةِ الهجـــــرانِ

ويشكل الغزل العفيف، على نحو ما تقدم، الغرض الرئيس في شعر العباس والذي أخذ من الديوان شطراً كبيراً، إلا أننا لا نعدم أغراضاً شعرية أخرى جاءت على ندرتها موصوفة بالبراعة التعبيرية والجمال التشكيلي، فمن قوله في العتاب والشكوى(٦):

كــــلّ يـــــومٍ لنـــــا عتـــــابٌ جديـــــدُ وهوانـــــا علـــــى العتـــــابِ يزيـــــدُ
كــــلّ حـــــبٍّ يبيـــــدُ يومـــــاً فيفنـــــى وهوانـــــا وهجرُنـــــا لا يبيـــــدُ

---

(١) شرح الديوان، :٣٥.
(٢) المصدر نفسه، :٢٥٥.
(٣) المصدر نفسه، :٣٠٩.
(٤) المصدر نفسه، :١١٢.
(٥) المصدر نفسه، :٣٠٦.
(٦) المصدر نفسه، :٢٤.

وقوله(١):

ظهـرَ الخفـاءُ فقلـتُ إن عاتبتُهـا كـان العتـابُ لودِّنـا اسـتهلاكا
وطمعـتُ أن تبقـى المـودةُ بيننـا موصـولةً فتركـتُ ذاك لـذاكا

وقوله:

أيهـا العاتـبُ الـذي يتجنّـى كـلّ يـومٍ ليصـرمَ الحبـلَ منّـا
قـد عرفنـا الـذي تريـدُ بهـذا فـأتِ مـا شئتَ راشداً مـا تعنّـى(٢)
قـد أمـتَّ الوصـال منـك بصـدٍّ لـو أعدتَ الوصال منكَ لعِشنا(٣)

كما أننا نجد في شعره بعضاً من الوصف والرثاء كالذي قاله على لسان الرشيد وهو ينعي جاريته(٤):

يـا مـن تباشـرتِ القبـورُ بموتـهِ قصـد الزمـان لمهلكـي فرماكَـا
أبغـي الأنـيسَ فـلا أرى لـي مؤنسـاً غـلا التـردّدُ حيـثُ كنـتُ أراكَـا
ملـكٌ بكـاكَ فطـال بعـدك حزنـهُ لـو يسـتطيعُ بملكـهِ لفـداكَا
يحمـي الفـؤاد مـن النسـاءِ حفيظـةً كـي لا يحـلّ حمـى الفـؤادِ سـواكا

وفي مدح هارون الرشيد يقول (٥):

إنمـا حبّـبَ المسـيرَ إلينـا أننـا نسـتطيبُ مـا تسـتطيبُ
مـا نبـالي إذا صـحبنا أمـينَ ال لّـهِ هـارونَ أن يطـولَ المغيـبُ

ولعلّ موقف العباس من مفهوم القدر يتضح في إحدى هجائياته النادرة التي قالها في أبي ذهيل نفسه(٦):

---

(١) شرح الديوان، :٢٢٣.
(٢)المصدر نفسه :٥٨.
(٣) المصدر نفسه، :١١٩.
(٤)المصدر نفسه، :٢٨٤.
(٥) المصدر نفسه، :١٠٧.
(٦) الأغاني، ٨/٣٧٠.

يـا مـن يكـذّبُ أخبـارَ الرسـولِ لقـد أخطـأتَ فـي كـلِّ مـا تـأتي ومـا تـذرُ
كـذّبتَ بالقـدر الجـاري عليـكَ فقـد أتـاكَ منّـي بمـا لا تشـتهي القـدرُ

فأبو هذيل يكذّب بالقدر الجاري عليه من أخبار الرسول عليه الصلاة والسلام، فلو كان العباس يقصد بالقدر أنه الحتم المقضي أو الجبر المقدّر على الخلق، لكن استطاع أبو هذيل تكذيبه، ولذا فالقدر المقصود بقول العباس إنما هو الوحي المنزل مع تخيير الخلق على الأخذ به أو الصدّ عنه، على النحو الذي يبرز إرادة التخيير الحرّة لدى الإنسان، خلافاً لما ادّعاه أبو هذيل، وهنا يسترعي النظر الموقف الشخصي الذي يدخل في النقد، والبعد عن الحياد والموضوعية، على نحو ما يحيلنا على طبيعة النقد الانطباعي عموماً لدى القدماء.

أما أهم الخصائص الفنية في شعره فتظهر في ذكره المظاهر الحضارية في المجتمع العباسي كتبادل الهدايا، والمراسلة، والتعرض للتهذيب الحضاري، الذي أحدثته المدنية العباسية المترفة. وكان أكثر شعره مقطوعات، ذات نَفَسٍ شعري قصير، وهذا عائد إلى طبيعة التطور الحضاري، إذ كلما تعقدت أسباب الحضارة، كان الملل يتسرب إلى نفوس الناس نتيجة الأشعار الطويلة، ولم يعد لديهم الوقت والاستعداد أن يستمعوا إلى قصائد طويلة، إضافة إلى اقتصار الشعر على الأبيات القصيرة والمجزوءة، وعلى الرغم من أن أكثر أوزان العباس طويلة، وسبب هذا عائد إلى أن أكثر غزله قصائد قصيرة إلى جانب المجزوءات، وبهذا يكون أكثر الشعراء الغَزِلين استعمالاً لأوزان الشعر المختلفة.[١]

أما لغة شعره فكانت سهلة، تجنح إلى الشعبية، وقد تمتح من معين الحياة اليومية، فربما استعمل تعبيرات عامية كقوله[٢]:

جرَّبـتُ مـن هـذه الـدنيا شـدائدها ما مرَّ مثل الهوى شيءٌ على رأسي

المبحث الثاني

١ ينظر: شعر العباس بن الأحنف ،دراسة فنية،اطروحة دكتوراه،قصي سالم علوان،جامعة البصرة،العراق،٢٠١٧م:٢٥٥.

(٢) الديوان، :٣٣٥.

إجراءات نقدية

تعددت الآراء النقدية بشأن شعر العباس بن الأحنف، إلا أنّ معظمها – على قلّتها – تُجمع على أنّ شعره من بديع الشعر في العصر العباسي، ولا سيما في غرض الغزل العذري، شكا العباس وبكى وتألّم كشأن غيره من الشعراء العذريين ممن سبقوه، وانماز عن باقي شعراء عصره بجدّته التي تمثلت ببقائه على غرض شعري واحد، مما جعل له فلسفة خاصة في عشقه، لكنها فلسفة تشوبها العوائق العاطفية والمكانية والزمانية، لذا اتخذ من البكاء عمدةً في شعره، فأغلب أبيات ديوانه تشير بأدنى لفظ للبكاء، إما بلفظه ذاته، أو بما يلازمه ويرادفه(١).

وعن ابن ذكوان قال: ((سمعتُ إبراهيم بن عباس الصولي يقول: ما سمعتُ كلاماً محدثاً أجزل في رقّة، ولا أصعب في سهولة، ولا أبلغ في إيجاز، من قول العباس بن الأحنف))(٢):

أناسيةٌ ما كانَ بيني وبينها وقاطعةٌ حبل الصفاء ظلومُ
تعالي نجدّد دارسَ العهد بيننا كلانا على طول الجفاءِ ملومُ

ويصفهُ إبراهيم بن عباس الصولي، وهو خاله، بأنه كان والله إذا تكلّم لم يحبّ سامعُه أن يسكت، وكان فصيحاً جميلاً ظريف اللسان، لو شئت أن تقول: ((إنّ كلامه كلّه شعر لقلت. وقال الجاحظ: لولا أنّ العباس بن الأحنف أحذق الناس وأشعرهم وأوسعهم كلاماً وخاطراً ما قدر أن يكثر شعره في مذهب واحد لا يجاوزه، لأنه لا يهجو ولا يمدح ولا يتكسّب ولا يتصرّف، وكان العباس من الظرفاء ولم يكن من الخلفاء، وكان غزِلاً ولم يكن فاسقاً، وكان ظاهر النعمة ملوكيّ المذهب شديد التزيّن، وذلك يتبين في شعره، وكان قصده الغزل،

---

(١) ينظر: البكاء في شعر العباس بن الأحنف، ثروت حاتم أحمد بدر، جامعة الخليل، ٢٠١٧-٢٠١٨م، :٤.

(٢) الأغاني، ٨/٣٥٤.

وشغلهُ النسيب، وكان حلواً مقبولاً، غزِلاً، غزير الفكر، واسع الكلام، كثير التصرف، وكان يتعاطى الفتوّة على سترٍ وعفّة، وله مع ذلك كرمٌ ومحاسنُ أخلاق وفضل من نفسه، وكان جواداً لا يُليق درهماً ولا يحبس ما يملك))[١].

وقال الخطيب البغدادي((ولم يقل في المديح والهجاء إلا شيئاً نزراً))[٢]، فما وصل من شعر العباس في غير الغزل يقع في أربعةٍ وستين بيتاً توزعت بين المدح والرثاء وما تضمنته قصيدته في الكرة والصولجان، وما تبقى في ديوانه ففي الغزل العفيف[٣].

ويذهب بعض الدارسين إلى توصيف شعر العباس بأنه خالد، ((لأنّ الشعر الذي تنطبق عليه صفة الخلود هو الذي يلقى قبولاً لدى أكبر عدد من الناس، بغضّ النظر دياناتهم ومعتقداتهم وجنسياتهم، لأنّ صفة الخلود مبنية على تحريك المشاعر والأحاسيس وإقناع العقل، وهو صالح لكل زمان ومكان))[٤]. فأشعارهُ تؤكد حضور الذات والصوت، فصوته جاء عالياً متأرجحاً بين الحب والحزن والقلق والاغتراب.

وينقل صاحب تاريخ بغداد[٥] على لسان أحمد بن أبي طاهر: قال بشار: ما كنّا نعدّ هذا الغلام من الشعراء – يعني العباس بن الأحنف – حتى قال هذين البيتين[٦]:

نـزفَ البكـاءُ دمـوعَ عينـكَ فـالتمسْ عينـــاً لغيـــركَ دمعُهـــا مـــدرارُ
مَـن ذا يُعيـركَ عينَـهُ تبكـي بهـا يـــا مَـــن لعـــينٍ للبكـــاءِ تُعـــارُ

وشبيهٌ بهذه الرواية ما ينقله لنا الحصري القيرواني (٤٨٨هـ)[١] عن بشّار: ما زال

---

(١) الأغاني، ٨/ :٣٥٤-٣٥٥.وينظر: طبقات الشعراء، وابن المعتزّ، :٢٣٢-٢٣٣.
(٢) تاريخ بغداد، ١٢، :١٢٧.
(٣) ينظر: المصدر نفسه والصفحة نفسها.
(٤) اتجاهات الغزل في القرن الثاني الهجري، يوسف بكار، :٢٨٠.
(٥) تاريخ بغداد، ١٢، :١٣٠.
(٦) شرح الديوان: ١١٦.

فتىً من بني حنيفة يدخل نفسه فينا ويخرجها منا حتى قال(٢):

نـزفَ البكـاءُ دمـوعَ عينـكَ فـالتمسْ عينـــاً لغيـــركَ دمعُهـــا مـــدرارُ
مَــن ذا يُعيــركَ عينَــهُ تبكــي بهــا يـــا مَـــن لعـــينٍ للبكـــاءِ تُعـــارُ

وتقدّم لنا هذه الرواية ثلاث فوائد: الفائدة الأولى: نشأة الشاعر منذ صباه في البصرة في عصر توهّجها العلمي والأدبي، ونشاطه منذ صغره بين شعرائها. والفائدة الثانية: أنّ نضج هذه الأبيات يمثّل انطلاقته الشعرية الناجحة، ولا بدّ من أن تكون قد سُبِقت بمحاولات أقلّ منها نضجاً، وهذا ما يكشف عنه قول بشار: يدخل نفسه فينا ويخرجها منا. أما الفائدة الثالثة فهي اختيار الشاعر للغزل منذ صباه، واتخاذه للألم غذاءً لوجدانه منذ نعومة أظفاره، إذ أنعش موهبته التي تجعلنا نتساءل عن أيّ شاعرية يمتلكها غلام تُسفر هذه الأبيات الرّائعة، ولعله دليل آخر على أصله العربي دماً وروحاً(٣).

ومن الروايات الأخرى التي تؤكّد إعجاب بشّار بشعر الأحنف ما يرويه لنا الخطيب البغدادي(٤) من أنّ بشاراًأنشد قول الأحنف(٥):

لمـــا رأيـــتُ الليـــلَ ســـدَّ طريقَـــهُ عنّـــي وعـــذّبني الظـــلامُ الراكـــدُ
والـــنجمُ فـــي كبـــدِ الســـماءِ كأنـــه أعمـــى تحيّـــرَ مـــا لديـــهِ قائـــدُ
ناديـــتُ مَـــن طـــردَ الرّقـــادَ بنومـــهِ عمّـــا ألاقـــي وهـــو خلـــوٌ هاجـــدُ

---

(١) زهرة الآداب وثمر الآلباب إبراهيم الحصري القيرواني/ :١٠١٤.وينظر: وكتاب الأمالي لأبي علي القالي، :٢٠٨-٢٠٩.

(٢) شرح الديوان: ١١٦.

(٣) شعر العباس بن الأحنف – دراسة فنية، إياد يوسف يعقوب المنصوري، جامعة البصرة، ٢٠٠٧م،:٢.

(٤) ينظر: تاريخ بغداد، ١٢، :١٢٩-١٣٠.

(٥) شرح الديوان: ٨٢.

فقال: قاتل الله هذا الغلام، ما رضي أن يجعلهُ أعمى حتى جعله بلا قلائد. وهذه اللمحات تكشف عن ولادة شاعرية العباس بن الأحنف ولادة مبكرة تعمقت فيها موهبته ورهافته العاطفية التي تجسدت في شعره.

ومرة أخرى ينقل لنا الاصفهاني الصولي قوله:((سمعتُ عبد الله بن المعتزّ يقول: لو قيل: ما أحسن شيء تعرفه؟ لقلتُ: شعر العباس بن الأحنف)) (١):

قد سحبَ الناسُ أذيالَ الظنونِ بنا وفـرّق النــاسُ فينــا قـولَهم فرَقـا
فكـاذبٌ قـد رمــى بالحـبّ غيـرَكمُ وصـادقٌ لـيس يـدري أنــه صـدَقا

والأخبار الشبيهة بهذا كثيرة مكررة(٢)، فها هو ذا سليمان الأخفش يقول: لم تزل العلماء تقدّمهُ على كثير من المحدثين((ولا تزال ترى له الشيء البارع جداً حتى تُلحقه بالمحسنين))(٣).

وعندما سمع الأصمعي قول العباس:

حتـى إذا اقتحمَ الفتـى لُجـجَ الهـوى جــاءتْ أمــورٌ لا تُطــاقُ كِبــارُ

وقوله أيضاً:

أبكـــي الـــذين اذاقـــوني مـــودّتهم حتـــى إذا أيقظـــوني للهـــوى رقـــدوا

قال: هذا والله لا يقدر أحد أن يقول مثله أبداً(٤).

ويُذكر أنّ أبا العتاهية قال: ما حسدتُ أحداً إلا العباس بن الأحنف في قوله(٥):

---

(١) الأغاني، ٧/ :٣٧٦-٣٧٧.
(٢) ينظر:الإمتاع والمؤانسة، : ٢، :١٤٥-١٧٧.
(٣) الأغاني، ٨، :٣٥٢. وتاريخ بغداد، ١٢، :١٢٨.
(٤) الديوان، :١٣٩.
(٥) الأغاني: ٣٧٥/٨، ويُنظر: شرح ديوان العباس بن الأحنف، مجيد طراد، دار الكتاب العربي، بيروت: ٨.

إذا امتنـــع القريـــبُ فلـــك تنلْـــهُ علـــى قـــرُبٍ فـــذاكَ هـــو البعيـــدُ

فقال أبو العتاهية: فإني كنتُ أولى بهذا البيت من العباس، لشبهه بشعري أكثر مما يشبه شعرالعباس، فقيل له: صدقت هو بشعرك أشبه(١).

ولعذوبة ألفاظه ورقة معانيه وخفّة ظلّه ورشاقة موسيقاه أصبح شعره مادة لغناء أشهر مطربي ذلك العصر وجواريه، حتى صار شعره حديث القصر بمختلف مستوياته، ومصدر اهتمام عامة الناس.

وترى الباحثة أن هذه الآراء وغيرها مما أتى عليه الدارسون الذين درسوا شعر العباس بن الأحنف، تدفع ما ذهب إليه طه حسين من أنّ العباس سقط بين الكرسيّين، ((لأنه لم يبلغ إتقان الغزليين من شعراء بني أمية، وإجادة العابثين من شعراء بني العباس، وإنما جاء فاتراً لم يترك في النفس أثراً قوياً، لأنّ الفنّ الذي أراد أن يختصّ به كان قد انقضى عصره، وانتهت الأسباب التي أوجدتهُ، ومكّنت الناس من إتقانه والإجادة فيه))(٢). ففي الحقيقة إنّ قلة عدد الشعراء أو ضعف الاتجاه نحو تيار الغزل العفيف بسبب ما آل إليه الناس في تلك الحقبة، لا يلغي ما للغزل العذري من تأثير، فالعفّة لا تحتاج إلى زمن حتى ينتهي أثرها في النفس، وقد ضمّ الشعر في تلك المدة عدداً قليلاً من الشعراء، كان على رأسهم العباس بن الأحنف.

ولعلّ الدراسات الحديثة والآراء القديمة في شعر العباس بن الأحنف تثبت بما لا يدع للشك أنّ هذا الشعر يستحق منا وقفات تحليلية مطوّله، تنفتح على الاتجاهين النقديين القديم والحديث، ومما نقف فيه على المشترك النقدي في شعر العباس قوله(٣):

ألـم تعلمـي يـا فـوزُ أنّـي معـذّبٌ بحـــبّكمُ والحَـــينُ للمـــرءِ يُجلَـــبُ

---

(١) شرح ديوان العباس بن الأحنف، مجيد طرّاد، دار الكتاب العربي، بيروت، :٨.

(٢) حديث الأربعاء، طه حسين، ١/ :٢٩٤.

(٣) شرح الديوان، :١٢.

وقــد كنــتُ أبكــيكم بيثــربَ مــرّةً وكانــت مُنــى نفســي مــن الأرضِ
أؤمّلكــم حتــى إذا مــا رجعــتمُ أتــاني صــدودٌ مــنكمُ وتجنّــبُ
فــإن ســاءكم مــا بــي مــن الضُّــرّ وإن ســرّكم هــذا العــذابُ فعــذّبوا
وإنــي لأقلــى بــذلَ غيــركِ فــاعلمي وبخلــكِ فــي صــدري ألــذُّ وأطيــبُ

يعزّي الشاعر نفسه بالبكاء والأماني الجارحة، وهو ما يعتذر به الباكون عن بكائهم وما يحتجون به لدى أعدائهم،((وهو نوع من الإفصاح عن موجب الدّمع وداعي البكاء، والعبس في مخاطبته محبوبته فوز يعتمد على السائد والمحتمل في حركية مستمرة من التغيير والاضطراب، فيتحرك في تخيّله، وهذا ما دفعه إلى حرية البوح فيغاير المألوف ويضيف هويته الخاصة))[١]. فكان الرجل مقرّاً – باستعمال الاستفهام التقريري – بمشاعره وإيصالها للآخر، وهي مشاعر الحرمان، موظفاً حرف النفي لم، وهو حرف انفعالي ليحفز ويستثير مشاعر فوز بالعذاب الذي يعاني منه، لذا فإنّ دموعه واحدة بسبب بعد المحبوبة، إلا أنها اتخذت أشكالاً وصوراً مختلفة، متنقلاً في استخدامه بين الأفعال (المضارعة تعلمي، و أبكي، و أؤمّل، والماضية ساءكم، وسرّكم ، وأتاني، و كانت، وأفعال الأمر عذّبوا – ارحموا) المتصلة أكثرها بضمير الجماعة، لبيان معاناته. وتجدر الإشارة إلى أنّ الشاعر استخدم لفظة أبكيكم بصيغة المضارع في دلالة على تفاعل الحدث ومشاركته غيره في البكاء.

وما يزيد من تخيّله ((أنّ مشهده الشعري ينتهي بصمت فوز، فيغدو ذلك طرفاً فاعلاً ومتفاعلاً في عملية نشوء النصّ، وإنّ الانتقال الذي تحدثه المحبوبة بين حالتي السخط والرضا يحمل في طياته تحولاً مفاجئاً يظهر طبيعة العلاقة بينهما، القائمة على الرفض

(١) ينظر:سيميائية التجربة العفيفة في غزل العباس بن الأحنف، ناظم حمد السويداوي، مجلة جامعة التنمية البشرية، مج ٣/ ع ٢، ٢٠١٧م، :٣٥٧.

والقبول، وهذا يؤكد أنّ إمكانية اللقاء منذ البداية مع المحبوبة في ظل التوتر الحاصل رهينة بتمايز القرب والبعد وبالإحساسات التي تنتاب الشاعر))[١].

وكان العباس بن الأحنف دائم المحاولة في الاستشفاء بدموعه والاكتفاء بها في الحب، يؤكد ذلك قوله في خاطبة المحبوبة[٢]:

إنــكِ لا تعــرفين مــا الهــمّ وال غـــمّ ولا تعلمـــين مـــا الأرقُ
أنـــا الـــذي لا تنـــام عينـــي ولا ترقـى دمـوعي مـا دام بـي رمـقُ
أُحـــرَم مـــنكم بمـــا أقـــول وقـــد نـــال بـــه العاشـــقونَ مـــن عشـــقوا
صـــرتُ كـــأني ذبالـــةٌ نصـــبتْ تضـــيءُ للنـــاسِ وهـــي تحتـــرقُ

ترى الباحثة أن الشاعر عاش حالة نفسية يعبّر عنها بنفس عاطفي، وصوّر حاله في تشكيله الفني،((فيتوجه بالخطاب إلى المحبوبة متحدثاً عن الحرمان في حكمة بالغة الشمولية، مشبّهاً نفسه بالرجل العظيم الذي يحرق نفسه ليضيء للآخرين، على نحو قوله: صرت كأني.... ولا شكّ في أنّ العلاقة بين العشق والقلق والاحتراق وثيقة كما تعكس العلاقة بين النور وسط الظلام))[٣]، وهذه الحالة تتناسب والبكاء والدموع التي تصدر عن روح تحترق، فيرى في نفسه نوراً وهاجاً كأنه المصباح وقد عظمت شعلته، لكن فرغ زيته وشيكاً واحترقت ذبالته، في مفارقة بين أنّ المصباح يفني الظلام ويحرق نفسه.

وعلّق طه حسين على قول العباس((لم يخطئ العباس حين شبّه نفسه بالذبالة التي تضيء للناس وهي تحترق، فليس الأديب والفيلسوف والعالم وصاحب الفنّ إلا سراجاً،

---

(١) سيميائية التجربة العفيفة في غزل العباس بن الأحنف، ناظم حمد السويداوي:٣٥٨.

(٢) شرح الديوان، :١٩٦-١٩٧.

(٣) التقيّة في شعر الشريف الرضي والعباس بن الأحنف – دراسة في ضوء الاسلوبية الشعرية المقارنة، إيمان محمد أمين الخضر الكيلاني، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، الأردن، مج ٣٢، ع ١، ٢٠٠٥م، :٨٠.

فيعطيهم من ذات نفسه، ويمنحهم خير ما عنده، وفي المقابل لا أمل من أن يمنحوه مثل ما يمنحهم من نفسه، أو يردّوا عليه ما أعطاهم من السعادة والمتعة وراحة البال))[١].

ويقول العباس بن الأحنف [٢]:

صـاغ قلبـي لـك حبّـاً مـن ذهـبْ لـم أشُبْ يـا سحرُ صدقي بالكذبْ
أفِّ للـــدنيا إذا مـــا لـــم يكـــن صـاحب الـدنيا حبيبـاً أو مُحـبْ
إنْ نـأتْ عنـي فيـا وجـدي بهـا وإذا مـــا قربـــتْ منـــي اقتـــربْ
وإذا لـــم أرَ ســـحراً ســـاعةً عبـثَ الشـوقُ بـدمعي فانسـكبْ

نلحظ ان ابن المعتز يصف هذا البيت بأنه ((من بديع ما للعباس بن الأحنف ما ليس لأحد أن يدانيه))[٣] يصوّر الشاعر عدم ثباته على حال واهتياج عاطفته، فهو يبكي رغبةً في طلب التوازن والهدوء، لكن دمعه يخونه، ويؤكد كلامه بتكرار الأنا الذاتية التي عدّها وسيلة زمانية ظهرت مع الجناس، لتأكيد أنّ زمانه مستمر، ودموعه مستمرة، فيشكو ويبكي، ويفلسف عشقه، وحتى ينسجم مع واقعه رأى من البكاء سبيلاً، كأن الشاعر ومحبوبته كالشرق والغرب، ولن يلتقيا، والشاعر لا يزال مبتلى في تفكيره، ويعبث التوجع والشوق فيه. إنه لأمر طبيعي أن يتشكّى المحبّون، وأن يتوجّع العاشقون، وخاصة إذا كان العاشق منهم صادق الودّ ملتهب الحبّ، رقيق اللفظ، مهتاج العاطفة والمزاج، مرهف الحسّ[٤].

ويقول العباس[٥]:

نشكو الظّماءَ وما نشكوه عن عطش لكـــنْ لغلّـــةِ قلـــبٍ بـــات محزونـــا

---

(١) ينظر: خصام ونقد، طه حسين، :١١٣.
(٢) شرح الديوان، :٤١.
٣) طبقات الشعراء لابن المعتز م٢٥٥/١.
(٤) ينظر:العباس بن الأحنف شاعر الحبّ والغزل، محمد علي الصياح، :٧٦.
(٥) شرح الديوان، :٢٥٤-٢٥٥.

أبكـي ومثلـي بكـى مـن حـبّ جاريـةٍ لـم يجعـل الله لـي فـي قلبهـا لينـا

جعل الشاعر من حبّه مرضاً يصرفه عن الاهتمام بنفسه، فلا يرى إلا المحبوبة ولا يذكر إلاها، حتى يذبل جسمه، ولا يفعل شيئاً سوى البكاء. وقد عبّر الأصفهاني عن شدّة إعجابه بشعر العباس حتى قال في أبياته هذه: فما أعلم له فيه معنى إلا استحسانه، فالعباس أحسن فيه جيداً(١). إذ يكرر الأنا الذاتية.

ويقول أيضاً(٢):

تجـافى مرفقـايَ عـن الوسـادِ كـأنّ بـه منابـتَ للقتـادِ
فيـا مـن يشـتري أرقـاً بنـومٍ فيسـلبَ عينـهُ ثـوب الرقـادِ
تطـاولَ بـي سـهاد الليـلِ حتـى رسـتْ عينـايَ فـي بحـرِ الُّهـادِ
وباتـت تمطـرُ العبَـراتِ عينـي وعـينُ النبـعِ تنبـعُ مـن فـؤادي
فلـو أنّ الرّقـادَ يُبـاعُ بيعـاً لأغليـتُ الرّقـادَ علـى العبـادِ

جعل الشاعر من الأرق والتعب شيئاً يُباع ويُشترى، فنقله من المجرد إلى المحسوس، وجعلهُ متداولاً كدموعه، كما جعل الرقاد شيئاً حسّياً كالملابس التي تغطي عينيه وتمنعه من النوم، ولا سبيل لديه إلا للبكاء. وجعل من عينيه سفينة ومن سهاده بحرها، وقد رست جاعلاً من شكل عينيه سفينة، والعين من شدة الأرق والتعب كالسفينة في البحر من شدة الموج، واتخذ من العين سحاباً يمطر لإطفاء حريق القلب، فالدموع أمطار منهمرة من كثرتها.

وتقوم صور الشاعر على الحواس والارتباط بين المحسوس وغير المحسوس، لذا تعمل الحواس في الاستعارة من خلال دورها المهم في الإيحاء والتأثير عن طريق لون أو صوت أو صورة أو مذاق أو ملمس بأن تثير تجارب الشاعر وذكرياته وهواجسه وانفعالاته، فتؤدّي إلى صياغة صورة شعرية معبّرة خاصة في ذهن المبدع ومتّصلة بالقارئ كذلك، لذا

(١) الأغاني، ٥، :١٧٢.
(٢) شرح الديوان، :٧٦-٧٧.

فإنّ الاقتران والارتباط بين المحسوس والمشاعر والأفكار يكسب الصورة الاستعارية فاعليتها في عالم شعري متكامل(١).

وقد أصبح الهجر من محاسن تجربة العباس، وهذا يدلّ على تجربة عذرية متميزة، فيها صراع عكسي داخلي يعتمد على اللاوعي، يقول(٢):

وكنـــا عاشـــقينَ ذوي صـــفاءٍ وَوَرْيٍ فـــي الجـــوانح ذي اتقـــادِ
وكنّـــا لا نبيـــتُ الـــدهرَ حتـــى نكـــون مـــن اللقـــاءِ علـــى اتّعـــادِ
فغيّرَنـــا الزمـــانُ وكّ شـــيءٍ يصـــير إلـــى التغيّـــرِ والنّفـــادِ

يعبّر الشاعر عن حضور المحبوبة في اللاوعي بعد البعاد الذي حصل بينهما، متجاوزاً الواقع، ومتخيلاً عشقه، فالمحبوبة وإن غابت عن الأعين، فإنها لم تغب عن القلب فهو في اللاوعي، فيقف أمام صورة قلبه المعذّب من بعد المحبوبة، وفي الوقت ذاته يهيم على مصدر هذا العذاب في مفارقة بين حالتي العذاب والإقبال الداخلي.

ويلجأ الشاعر إلى الحكمة في قوله: ((وكلّ شيء يصير إلى التغير والنفادٍ، فيردّ التغيير الحاصل بينه وبين المحبوبة إلى الزمن، وفي كلامه حكمة أراد من ورائها إقناع نفسه بأنّ الإنسان لا يستطيع مقارعة الزمان أو الإفلات من سطوته، وحبيبته ليست ببعيدة عن تلك السطوة))(٣).

ويقول العباس(٤):

إذا مـــتُّ فـــابكوني قتـــيلاً بطرفـــهِ قتيـــل عـــدوٍّ حاضـــرٍ لا يزايلُـــهْ
فـإنّ أحـقّ النـاس أن يكثـر البكـا عليـه قتيـلٌ لـيس يُعـرَفُ قاتلـهْ

---

(١) ينظر: التصوير الاستعاري في شعر العباس بن الأحنف، محمد :الح خوالدة، وحسام م:طفى، مجلة دراسات العلوم الإنسانية والاجتماعية، مج ٤٠/ ع ٣/ ٢٠١٣م، :٧٤٨.

(٢) شرح الديوان، :٢١٧.

(٣) مسوّغات الهجر والصدود في شعر العذريين – العباس بن الأحنف أنموذجاً، حسين عبد حسين حمزة الوطيفي: مجلة الكلية الإسلامية، العراق، مج ٩، ع ٤٣، ٢٠١٥م، :٢١٠.

(٤) شرح الديوان، :٢٢٩.

يعوذ من الهجان أن يكتوي به فلم أرَ إلا الموتَ شيئاً يعادلهْ

يتأمل الشاعر الموت، ويرثي نفسه وكأنه لم يجد غير نفسه عوناً له في مصيبته، فيطلب الموت كي يكشف مقدار الألم الذي يعيشه، إذ يصف حاله وما يعتريه ويبكي، لأن البكاء بلسم يخفف من الآلام، فالأبيات تفيض بلوعة الحزن وتجسّد مأساة الشاعر، وتعبّر عن حالته النفسية، مظهراً القلق العميق والخوف، ونفسه لم يتبقَّ بها سوى العبرات والأنّات. على هذا النحو تنكشف رؤيته للحياة والموت في تجربته الذاتية، فصار يرى الموت هو الحياة اتساقاً مع حالته النفسية والانفعالية الناجمة عن غياب المحبوبة، حيث إنّ الحياة لم تعد لها قيمة في ظلّ هذا الغياب(١).

ويقول العباس بن الأحنف(٢):

يا أيها الرجلُ المعذّبُ قلبُهُ أقصرْ فإنّ شفاءكَ الإقصارُ
نزفَ البكاءُ دموعَ عينكَ فالتمسْ عيناً لغيركَ دمعُها مدرارُ
مَن ذا يُعيركَ عينَهُ تبكي بها يا مَن لعينٍ للبكاءِ تُعارُ؟
الحبُّ أوّلُ ما يكونُ لجاجةً تأتي بهِ وتسوقهُ الأقدارُ
حتى إذا اقتحمَ الفتى لُججَ الهوى جاءتْ أمورٌ كلّها كُبّارُ

أكثر العباس من شكواه مصوّراً سهادهُ وما تركتهُ نيران العشق في نفسه، فقد كان دائماً يصف صبابته بها ووجده بها وجداً يتعمّقه حتى يصطلي بناره، وفيه يرتفع عن الحسّ والمادة ارتفاع الشعر الأموي.(٣) فيناجي نفسه المعذّبة، ((يهيب بها أن تخفّف مما هي عليه لعلّها تبرأ مما تعاني، ويصف مبلغ دموعه حتى جفّت عينه وغاض ماؤها، فهل يُعقل أن

---

(١) ينظر: قصيدة "رسالة المحبّ" للعباس بن الأحنف، في ضوء المقاربة القرآنية، سهام سلامة عباس، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالإسماعيلية، م:ر، ع ١٦، ٢٠١٦م، :٢٣٦.

(٢) شرح الديوان، :١١٦.

(٣) العصر العباسي الأول، :٣٧٧.

يضع أحد عينيه بين يدي آخر لتبكيه؟ وأول الحب لجاجة تحملها الأقدار إلى المرء فإذا غرق الفتى في أمواج الحبّ هناك تكون البلايا التي لا تُطاق))(١).

وقال بشار بن برد((لحق والله هذا الفتى بالمحسنين، وما زال يدخل نفسه معنا ونحن نخرجه حتى قال هذا البيت نزف البكاء...، وأنشد الرشيد قول العباس: من ذا يعيرك...، فقال: يعيرك من لا حاطه الله ولا حفظه))(٢).

ويقول العباس(٣):

كفى حزَناً أني أغيبُ وليس لي سبيلٌ إلى توديعكم فأودّعُ
تلفّتُّ خلفي حتى لم تبقَ حيلةٌ وزوّدتُ عيني نظرةً وهي تدمعُ

يستعمل الشاعر أفعال المضارعة ليدلّ على علاقة الشاعر الحاضرة مع المحبوبة وطبيعة هذه العلاقة، وهي أفعال تنبئ عن استمرارية مأساته. فإحساسات الشاعر المبدع لا تجد طريقها وتنفّسها الحقيقي إلا في عالم من الحبّ والعشق، وقد عبّر الشاعر عن هذا المفهوم في شعره الذي اتخذه قاعدة لحياته بتعبيره، هو غاية في البساطة والمباشرة والفنية البديعية(٤)، ويمكن أن نضيف قاعدة أخرى هي بثّ الألم والبكاء في النفس كمفهوم جديد للشاعر. ولعلّ تجمّل الشاعر بالصبر أولى به ما دام البكاء لا يردّ له ما فقده، لذا يدعو نفسه أن تكفّ عن الحزن، فلا داعي للمبالغة في البكاء والتباكي.

وقد كانت الغاية من هذا الموضع الإضاءة على مكانة العباس بن الأحنف شعرياً لدى عدد من النقاد القدامى والمحدثين البارزين ممن تناولوا أشعاره ووقفوا على لغتها وصورها ووسائلها البديعية، على النحو الذي يبرز مكانة هذا الشاعر لدى شعراء عصره، من جهة، ولدى الشعر

---

(١) الغزل العفيف بين العباس بن الأحنف وأبي نواس، أحمد :صالح ملحم، :١٩٥.
(٢) الأغاني،٥/ :١٩٣.
(٣) شرح الديوان، :١٧٦.
(٤) دلالة اللغة والتصوير الفني عند العباس بن الأحنف شاعر الغزل العذري، فاطمة الزهراء موافي، مجلة كلية الآداب، جامعة بنها، م:ر، ع ١٦٥، ٢٠٠٦م، :٨٠٢.

العربي عموماً، من جهة أخرى، ولدى ما يمتاز به من شعر الغزل العذري العفيف، من جهة ثالثة. وقد تبين ما للعباس بن الأحنف من مكانة مرموقة عل المستوى الشخصي أو الاجتماعي لجهة كونه شخصية أخلاقية محبوبة، وعلى المستوى الرّسمي، لجهة علاقته بالخليفة، وعلى المستوى الفني لجهة تقدّمه على أقرانه أو ندّيته لهم فنياً لما يتسم به شعره من رقة وجزالة ورونق نلتمس فيه سهولة المأخذ، وأصالة الطبع، والجدّة، على نحو شهد له كثير من مجايليه من الشعراء والنقاد.